

باب التوسل بالعلماء

✽ أميل القرن التاسع عشر ✽

(١٧) من هيلانه الى اراسم في ١٥ ابريل سنة ١٨٥٠

قد تم لي القرار في المنزل الذي استأجرته . وفي صباح اليوم قدم على احدى السفن التجارية خادمانا الزنيجيان قويدون وزوجته جورجيه آتين من فرنسا حيث كانا تخلفا عني لحزم امتعتنا فأسكنتهما رواقاً ملاصقاً للمنزل من ناحية البستان وأنا الآن أساعدهما في تفضي كتبك وترتيب مجموعاتك لم يكده يستقر هذا الزنجي البار حتى وجهه عزيمته الى الأعمال شتى فصرح لي ان في نيتة قلب أرض البستان وبذر المحبوب وغرس أنواع من النبات فيها الى غير ذلك من الاعمال وقال لي انه لالوم عليه اذا أنتج بستاننا عما قليل أطيب فواكه البلد وأجود بقوله وهو يذكر سابق اشتغاله بزراعة الارض أيام رقة وهو فرح فخور انه ينبت الى العمل بسائق الشكر والاقرار بالندمة بعد ان كان لا يلجئه اليه الا خوفه من ألم الضرب بالسوط ويقول ماأشد ائقان ماسيصير اليه شغلي فقد أصبحت مالكا لنفسي منفلاً من ربة الاستعباد

لأخني عنك ان المقارنة بين اسمه والمسمى كانت مدعاة الضحك ومشار الاستغراب وان سكان مرازبون يضحكون منه لانهم يستصهبون التوفيق بين معنى العشق (الذي يدل اسمه) قويدون) عليه فانه في أساطير اليونان اسم للعشق الذي هو ابن الزهراء الالهة الحسن) وبين مشفري ذلك الزنجي الغليظين وأتفه الافطس وجلده الاسود واني لاخشى ان يكون هذا الاسم

لم يطلق عليه من مواليه السالفين الاتهاماً وسخرية ولكني على رأي هذا لم
أجسر ان أكلمه في تغييره فاني لو فعلت لكان هذا اعترافاً مني له بأنه دميم
أو تصريحاً بان البيض لا ينصفون الافريقي مثله

أنا في هذا البلد أعيش بمعزل تام عن الناس فلا أتردد الا الى دار
السيدة وارنجتون حيث أصادف أحيانا بعض سيدات من بنزاس أو من
ضواحي مدينة لوندريه والذي يشغلني في اختلاطي بهؤلاء السيدات هو
الطريقة التي تجري عليها الانكازيات في تربية أولادهن واني مجتهدة
بملاحظتي اياهن في تعلم أخلاق وأعمال الامومة

ان سكان كورنواي وان صح انهم ليسوا من نسل الانكازيين السكسونيين
لما يقال من انسابهم الى فصيلة من الصقالبة ولما أراه بينهم وبين البريتونيين
(١) من المشابهة الكبرى في لون الشعر وملامح الوجه الا ان بين هؤلاء
السكان عدة من الاسر والعائلات الانكازية ومن كان من الباقيين غير
انكازيين الاصل فقد تخلقوا باخلاق تلك الامة التي ألحقهم بها الفتح وسرت
فيهم عاداتها على تفاوت في ذلك قلة وكثرة

انظر كيف يستقبح النساء في انكازيا طريقة تقييط الاطفال ويستهنجنها
ويقول الوالدات منهن استهزاء بنا اننا ندخل أطفالنا في أكياس رثاء الناس
حتى اذا سنحت لنا الفرصة علقناهم على مسامير في الحائط واكتفينا بذلك
مؤنة ماتستزمه حالتهم من العناية والرعاية اذا كانوا غير مقمطين . وانما
ساع لمن ان يقان ذلك لان أطفالهن يتمتعون بتام الحرية في حركاتهم
لانهم يلبسهم ثوبا طويلا من الصوف اللين (فانيلا) فيكونون فيه مالكي

(١) أهل بريتانيا وهي أحد أقاليم فرنسا

أنفسهم على قدر ما لهم من القوى الصغيرة في ذلك السن واني والحق أقول
معجبة بهذه المادة لاني كثيرا ما سائني رؤية الاطفال يربطون وتحصر
أجسامهم في ثنائف تضم أطرافها بالدبابيس فيكونون كجثث محنطة لفت
بشرائط من الكولان «١»

الاطباء الانكليز كافة يمتنون ما يجعل في أثواب الاطفال من الجبال
التي يعتمدون عليها في ديبهم وما يتخذ لهم من الدرجات الخيزورية (٢)
والآلات المتدحرجة لاجل مساعدتهم على الدرجان ويؤكدون أن
استعمالها مما يؤدي الى تشوه صدر الطفل واعوجاج ساقيه بما يستلزمه ذلك
الاستعمال من وقوع ثقل الجسم كله على العقبين

بل ان الدكتور وارنجتون قد بالغ في الامر حتى قال بوجود تمويد
الطفل من نعومة أظفاره على ان تكون أعماله كلها عن قصد وعزيمة ولهذا
يجب ترك اقامته وتمشيته بالآلات الصناعية حال عجزه عن ذلك بنفسه
لأن فيه تضليلا له في فهم مقدار قواه فانه حينئذ يتوهم انه يدرج بنفسه
والدارج في الحقيقة هي تلك الآلات التي يتمد عليها وهو وهم يصحبه طول
حياته ويظهر أثره في عامة شؤونه

يتعلم الاطفال هنا الحركة والانتقال بانفسهم فانهم يتركون وشأنهم في
التحرك فيتدحرجون ويمجرون على بساط يفرش لهم وينالون من القوة
تدريجا ما يمكنهم من الوقوف ثم يخاطرون بانفسهم فيخطون خطوات
مستعنين فيها بالاعتماد على ما يكون قريبا منهم من أثاث المكان فاذا
اضطربوا لضعفهم تلقىهم أذرع أمهاتهم فمنعهم من الوقوع

هذه الطريقة التي هي سنة الله في خلقه وليست سوى التخلية بين
الطفل وعمله هي أيضاً كثر انتشاراً في أمريكا منها هنا فقد سمعت بمناسبة
الكلام فيها ان سائحا انكليزيا صادف يوماً وهو في الولايات المتحدة
بأمريكا عبياً في الثانية أو الثالثة من عمره يزحف بيديه ورجليه على حرف
قطرة مدعرة يتدفق من تحتها سيل صخب فارتاع لتقوم هذا الحدث
التهور في الخطر فاسرع في التماس والدته فاصابها جالسة مطمئنة على حافة
مجرى هذا السيل نفسه تغسل ثياباً فمثل لها ما رآه من حالة ولدها وهو فرع
متخوف عليه الهلاك فما كان جوابها الا ان قالت غير مدهوشة ولا منزعة
ان الصبي معتاد على العناية بنفسه ووقايتها واني اذا عدوت اليه لا بعاده عن
مظنة الهلكة مظهرة له الجزع والهلع كان ذلك ولا شك مذهبا لرشاده
مضيقا لسداده فلما سمع السائح الاجنبي منها هذا القول اقتصر على مراقبة
الطفل لينظر ماذا يكون من أمره فراه قد مكنه ما بذله من قواه من تسكب
طريق الهلاك .

انا ان سيقنت لي الدنيا بحذافيرها على ان أرى صبياً لي في هذه الحالة
مارضيت ولكن تلك المرأة لم تخطئ خطأ بينا في تعريضها ولدها للخطر على
مارأيت كما قد يسبق الى الذهن بل انها فهمت فروض الامومة الحققة أحسن
منما فهمناها فان هذا الطريق في سياسة الاحداث من بداية نشأتهم هي
سبب ما نراه في سكان أمريكا الشمالية من ميلهم الى المخاطرة وشغفهم بالاستقلال
الوالدات الانكليزيات كافة يتمنن من تعطينة رؤوس أطفالهن ولا
يقبلن ان يضعن عليهن التبعات المحشوة بالوبر التي هي تيجان الضعف . نعم
انه قلا يمرض عليهن بما في ذلك من تعريض الاطفال للخطر لما يتوقع من

سقوطهم ولكنهم يدفنن هذا الاعتراض أولاً بان رعايتهم لهم واهتمامهم
بامرهم يقومون مقام الوسائل التي تتخذ عادة لوقايتهم وثانياً بان الطفل كلما
شعر بقلّة أسباب الوقاية من جانب النير زاد احتراسه وتوقيه فيلزم ان يربي
فيه من صغره خلق الاستقلال بحماية نفسه والدفاع عنها لان يعول في
حفظه على بعض طرق احتياطية لاتفي عنه شيئاً وهي دائماً مبنية على الوهم
والخطأ قل ذلك أو أكثر . اذا شاهدت الطفل الانكليزي وهو مكشوف
الرأس والذراعين والساقين خلته هرقل (١) صغيراً وان كان لا يخفق الاقاعي
- لانقطاع دابرها من جزيرته - ولكن قد بدت عليه مخايل الجسارة وسمات
الجراءة والاقدام . انى يوجد دم اغزر مادة من الدم الانكليزي وأي نسل
أقوى من نسل الانكليزي؟ ان معايب الجسم وأنواع تشوّهه هي في غاية الندرة
هنا ولا أخالك تصدقني اذا قلت اني الى الآن لم يقع بصري على أحد يب
أليس جمال النسل حجة قائمة تنطق بافصح لسان مؤيدة مذهب الحرية
الذي جرى عليه جيراننا في طريقة تربية أولادهم؛ المهد المذبذب الذي هو من لوازم
الاطفال عندنا قليل الاستعمال جداً فيما وراء بوزغاز المانش (اي بلاد الانكليز)
وانما يوجد للاطفال سرر كثيرة ليست من الاراجيح التي تهز باليد كالتى عندنا
فالانكليز عموماً يستردلون عادة هز الاطفال ويقولون انها ذريعة الى تعويدهم
على ان لا يناموا الا بوسائل صناعية . تعلمهم هذه العادة ان يتمسوا راحة
أبدانهم عند غيرهم على حين انه يلزمهم ان لا يطلبوها الا من أنفسهم ومن
الفطرة التي فطرهم الله عليها . نحن لانهم بما ينشأ عن اتخاذ تلك الوسائل
الباطلة الموافقة لرغائب اطفالنا من الآثار السيئة في طباعهم ولانطيل النظر

(١) هرقل هو ابن المشتري على ما في أساطير اليونان وهو من اشهر الشجعان طار

صيته عماله التي منها حتى الاقاعي

في ذلك . ان الطفل قبل تمييزه وتمايز أنواع الوجدان فيه يكون في فطرته من الاحتيال ما يمكنه من الاتفاع بضمه مع مراعاة من يكفونه له . فكم من أناس انقضى دور طفوليتهم وهم لا يزالون في حاجة الى الاهتزاز طول حياتهم فلا تعرف لهم نوما ولا يقظة بل تراهم في غفلة عن أنفسهم تحركهم عوامل العالم الخارجي فيرون في أحلامهم وخيالاتهم انهم يهتزون وكان الاولى ان تصيح بهم الشهامة ليهبوا من رقادهم ويشمروا عن ساعد الجد للعمل والمغالبة في ميدان الحياة

أخشي ان يكون كل كلامي هذا قريب الشبه بالوعظ الديني على اني لم آت به من تلقاء نفسي بل اني سمعته بما يقرب من عبارتي من قابلة وقور صديقة للسيدة وارنجتون مشهورة هنا بان قولها حجة في فن التربية . فان التربية في انكلترا هي أول علم يتلقاه النساء .

اني اخال الولدان في انكلترا أقل بكاء منهم عندنا فهل أنا واهمة في ذلك ؟ كلا لاوهم ولا خطأ فان بكاء الطفل انما يكون لتألمه من عارض يلتم به وان مامنحه هنا من الحرية وما حيط به من ضروب العناية الصحية وما سن له من قانون الغذاء كل ذلك يساعد على حفظ صحته ونموها . اذا كان للانكليز عناية كبرى بترقية نسل العجاوات حتى لا تجرد أجمل من خيلهم ولا أحسن من كلابهم فكيف مع هذا يظن انهم يغفلون تربية الآدمي الجسمانية الوالدات الانكليزيات يرضعن أولادهن بانفسهن متأسيات في ذلك بملكتهن ومن هنا كان لفظ المرضعة عندهن لا يؤدي معنى هذا اللفظ عندنا فلا يراد به الا المرأة التي تقوم على الولد في تربيته وحينئذ فالمراضع عند جيراننا ينقسمن الى قسمين تمايزين كل التمايز . أولهما الحاضنات ويسمين

عندهم بالمراضع الجافات ثانيهما المراضع الحقيقية ويوصفن بذوات البلال (١) الا ان هؤلاء أقل عددا ممن عندنا ولا يرجع اليهن الا عند الضرورة الملجئة حيث تكون الام في غاية العجز عن ارضاع ولدها بل ان كثيرا من الانكليزيات يفضلن القام ولدانهن زجاجات اللبن على القامهن اثناء المراضع المستأجرات وانهن ليوسعننا لوماً على تقيظنا في هذا الامر ولا اخالهن الا محقات في ذلك فكم من الفرنسيات المترفات من يركن ولدانهن الذين كان يجب ان يكونوا أعز شيء عليهن في هذا العالم ويكلن ارضاعهن الى نساء من أهل القرى جافيات الطباع قذرات لا يرضينهن مساعدات لهن في التزيين والتجلي

النظافة عند الانكليز هي في حق الاطفال أساس تدير الصحة وهي عامة كل الطبقات حتى الفقراء فانهم ينسلون اولادهم في كل صباح يشدد الاطباء هنا التنكير كما يفعله رصفاءهم في البلاد الاخرى على لبس النساء الغلائل المحزوقة (الضيقة الضاغطة) فلا يصغي لهم احد فالصينيات يتلقن اقداهن بالنعال الضيقة ونحن نتلف قدودنا بهذه الغلائل المحزوقة جريا على ما حكمت به المادة فرارا من السمن وبروز البطن عند الحبل على انه يجب الاعتراف بان الانكليزيات أقل منا عناية في اخفاء حباهن بل انهن يتخرن به فقد شبهت احداهن المرأة الحلبى بالشجرة المثمرة فقالت مثل المرأة في سبيل انشاء الاسرة كمثل الشجرة تحمل ثمرتها

الا نذكر اننا في ايام الهناء الخالية لما كنا نتمشي في منزه التويلير يا اوفي حديقة لو كسمبورج كثيرا مانا لنا رؤية اولئك الاحداث شهداء

(١) البلال بكسر الباء ما يبل به الحلق من الماء أو اللبن

البدعة الذين يخرجهم أهلهم متبرجين بالزينة فلبسهم حاضناتهم ثيابهم
وزيئتهم من القدمين الى الرأس قبل خروجهم ويكون من وراء ذلك ان الطفل
الحسن البزة لا يتبرطفلاً ولا يكون المقصود من اخراجه تسليته وروح
نفسه بل تحصيل اللذة لغيره فاذا أومع بالبحث في الارض بيديه أو جرى
في مهب الريح فعميت بتناسق ذوائب شهره الجميل وبخوع عنف على انه وسخ
نفسه ولم يمثل ما أمر به من السكون فكان ذوبه لا يرومون تزيهه وانما
يريدون عرضه على الانتظار . ليس الذي يقصد أولاً وبالذات من تلك التزه
هو امتاع الطفل بحرارة الشمس وهواء القضاء اللذين يقويان صحته وينميان
أعضاءه ، بما يكون معها من الرياضة والحركة بل ان المقصود منها هو اتخاذ
العوبة أتيقة يطأمن بهاؤها وروثها من نخوة الامهات الاخريات ويكسر
من زهوهن فاذا رأت الام بنيتها رفل في ثوب من الحز مزين بالطراز
المثقب (التاتلا) قالت في نفسها آه لو رأيتها السيدة فلانة أو السيدة فلانة
لانشقت مرآتها غيرة وكمداء . الى هنا أسك عنان القلم عن الاسترسال
في هذا الموضوع فاني قد أوغلت في الشرح على ما يظهر لي

النساء الانكازيات يحملن اولادهن ايضا فاخر الثياب ويخرجن بهم الى المنزهات
بل انهن يالغن في ذلك احياناً فيصلن الى حد الافراط غير ان هذا يكون لا في ايام
الآحاد . اما الاطفال الذين ينشأون في القرى فيندر ان ياتوا من انفسهم الحاجة الى
الخروج طول الاسبوع لان التأمين عليهم يحلون بينهم وبين اللعب في حديقة البيت
والمرح في حر الشمس وعلى البنات منهم دروع قصيرة وعلى البنين قمصان خفيفة من
الصوف ولا يديجون لانفسهم التعرض لشمس في الاعيهم . اما نحن فيحمانا هوسنا
بتهدير كل شيء وادارته الى التداخل في تزه الاطفال واستراحتهم بسياستهم في ذلك
وضبطهم بقواعد لا يتمدون بها .

لم يغيب عن ذاكرتك انا كنا يوما في قاعة السيدة . . . جالسين معها فدخل
عائنا وندها الكبير وهو صبي كان وقتئذ في الرابعة أو الخامسة من عمره تلوح عليه
سمات السهاجة والتفت الى والدته فسأها قائلا : أماء ماذا ينبغي أن أفعل لاتسلي وأروح
نفسى ؟ أنا لا أنزال أتذكر أندهاشك لهذا السؤال وما جرى من المزاح والضحك بيننا
بسيده . على ان هذا الصبي المسكين كان له حاضنة تقدر أجره كبيرة جدا ولذلك أحيل
عليها لتسليه وكان يظهر من حالها انها في غاية الضجر من وظيفتها .

ان في بعض الاسر الانكليزية أيضا حاضنات الا ان الذي عرفته بلشاهدة من
أمرهن انهن يسنن رعيتين الصغرى كما تسوس ملكة انكلترا رعاياها أعنى بذلك انه
لا يكاد يكون لمن سلطان عليها خصوصا فيما يتعلق بانواع اللعب وضروب التسلي . يستدل
جيراننا على وجوب اطلاق الحرية للاطفال في الأعيام بادلة سديدة على ما اعتقد
فيقولون ان الكبار في اشترأ كههم مع جماعة الاحداث الفرحين المرحين في تلك الاعيام
يرجعون دائما الى أذواق أنفسهم أكثر من رجوعهم الى أذواق أولئك الاحداث
فينقلون بذلك اعتبار رأيهم في مسألة لاصرية في ان موضوعها القيام لهم بحقوقهم وهذه
الحقوق ليست من الكثرة بحيث يسلم المطالب بها من وخز وجدانه نذا هضم منها شيئا .
ولهم حجة اقوى من هذه وهي ان حرمان الاطفال من الاختيار يمت فيهم روح
الاقطار (الابتدع والانشاء) والانبعاث النفسي الى العمل فانا به نححو آثار أنواع
مياهم الفطري ونقيم ميلنا مقامه فهل هذا هو الوسيلة الى تربية طباعهم ؟ الطفل اذا كان
نشيطا صحيح الجسم سهل عليه ان يستقل بنفسه في التنزه والترويح فاذا جرى على
ذلك اعتاد ان لا يكون تابعا لغيره في لعبه ومرحه . ألم تكن عادة عدم الاستقلال عند
الاطفال فيما ذكر هي سبب ما كان يعتور أولئك الملوك العايرين من الكدر والضجر
فيضطروهم الى ان يجعلوا في حشيتهم من المجانين من يضحكهم .

يدون يدخل بنا انكليزيا لاول وهالة خصوصا اذا كان منسلي لا يزال متأرا
بالافكار الفرنسية ان ما بين أهله من العلائق والماملات عليه سمة القصور والاحشام
فيرى الوالدين فيه أقل تملقا لاولادهم وأرغب عن ملاطفهم منهما عندنا وكذلك يرى
الاولاد أقل أنسا بالاجاب ومباشرة لهم . ولما لم ان كلامي هذا انما هو على جعلهم
فلا يتاني ان يصكون منهم من هو على غير هذه الصفة . فهل هذا الظاهر من قنور
العلائق وتراخيها منشاء طبع الامة الفريزي او انه مقسود جريا على مقتضى مذهب
او قائدة في التربية ؟ اليك رجع صدى حديثي في هذا الموضوع وحديث القابلية الحامية

صاحبة الفضل علي خصوصاً في الارشاد والتعليم . قالت ان الانكليز يجتنبون اظهار كثير من الملاطفة والمراعاة لاولادهم حتى لا يكون عليهم للمزاعم السخيفة سبيل . اما نحن فان الطفل عندنا يعامل مع الارتياح معاملة المرأة فكلاهما يعود علي ان يحب اكثر مما يحب . هذا النوع من المعاملة ينتج الفعجات من النساء والمارمين والعوالم (١) من الاطفال . المحبة تدعو الي المحبة اما انواع التعلق والمجادعة فانها تسمى جرائم الاثرة والزهو . فالطفل الذي يتزلف اليه والداه كما يتزلف الناس الي العظماء لئوال الحظوة لديهم وهذا هو شأنهما معه في الغالب - لا يلبث ان ينتهي به الامر الي اعتقاد ان الناس مدينون له بكل شيء وانه هو ليس مدينا لاحد منهم بشيء .

هذا ما بدا لي من الملاحظات نصصته لك على غيره موقفة بانه سينال حظاً من الاطلاع وما ذا ازيدك عليه ؟ حقا لم يبق عندي ما احنك به سوي ان متلك العزيز لا يفارق خيالي وحبك الراسخ لا يزال قلبي . قد رتبت بيتي فجعلته لسكنى اثنين كما كنت استحل به غدا ونظمت مكتبك ايضا فجعلت مافيه من الكتب والاوراق كلاً في موضعه وهو الآن مشوق اليك فعسى ان لا يطول عهد خلوة منك . هذا امل ارجوه ان لا احرم منه فانه لولاه لفضي علي الفراق . قد علقتم رسمك في مطعمنا الصغير في ساعات الاكل اجلس للمائدة مواجهة له فارى لصورتك فيه نوعاً من الحياة ويحيل لي حينئذ اني اتغذى معك وجهها لوجه كما كنا ايام القرب والادفاء . ما اولعني بالنظر الي هذه الصورة فلا بد ان ولدنا سيأتي مشابهاً لك والسلام في الختام
حاشية - اسالك على ذكر هذا الوالد ماذا تريد ان تسميه ؟

الاجنباء المتحجبين

الاسطول الفرنسي - لما علمنا بطواف هذا الاسطول بسواحل سوريا خطر لنا ان ذلك لغرض سياسي ثم جاءت الانباء بزيارة اميره (الاميرال فونيه) للبطرك الماروني في جونيه عظمى حواضر البحر في لبنان وما كان له من الحفاوة والاجلال من اللبنانيين وانه لما الم الاسطول بمحاضرة طرابلس الشام انحدر اهالي زغرتا نساء ورجال اليها وزاروا الاسطول جميعاً ورحبوا بمن فيه اعجاباً ورحيباً . ولا بد ان يكون هذا عن تواطؤ ومداولات فقد صر على اللبنانيين حين من الدهر وهم الي العثمانية اقرب منهم

(١) العوالم جمع عارمة والعارم الفاسد الشرس